مراجعة كتاب

الاستشراق

والخلفية الفكرية للصراع الحضاري

محمد الجفائري

لاشك ان للفكر الاستشراقي أهمية كبيرة في أوروبا وفي العالم الاسلامي، اذ لا نكاد نجد مجلة أو صحيفة في الوطن العربي والعالم الاسلامي، لا تشير الى هذا الموضوع في صميمه أو في جزئية منه ذات صلة به.

أما في أوروبا فانه لم يعد أحد يستطيع أن يفكر أو يكتب عن (الشرق) الا اذا كان مرتبطاً بالقيود التي صنعها الفكر الاستشراقي إذ أن الاستشراق «يشكل شبكة المصالح الكلية التي يستحضر تأثيرها بصورة لا مفر منها في كل مناسبة.. يكون منها ذلك الكيان العجيب (الشرق) موضوعاً للنقاش» (ادوارد سعيد: الاستشراق ص 39، ترجمة كمال أبو ديب - مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت، 1981 م).

ولا يعد هذا الأمر غريباً، لأن الفكر الاستشراقي يعتبر جزءاً مهماً في قضية الصراع الحضاري بين العالم الاسلامي والغرب، بل انه يمثل الخلفية الفكرية لهذا الصراع، وكان له دوره في تشكيل التصور الأوروبي من الاسلام، وتحديد موقف (الغرب) نحو الاسلام منذ قرون.

ان الغربيين عموماً يستمدون معلوماتهم عن الاسلام من كتابات المستشرقين، والاستشراق على اختلاف وجهات النظر - له تأثيره القوي، ومن هنا فنحن لا نستطيع أن نتجاهله، أو نقف عند مجرد رفضه إذ «ليس هناك بديل عن مواجهة المشكلة وطرحها على بساط البحث ودراستها واستخلاص النتائج واقتراح الحلول» (الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ص 14).

ومن هذا المنطلق يتصدى الدكتور محمود حمدي زقزوق لهذه القضية، ويخصص لها كتاباً مستقلاً بعنوان «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري» لأن البحث يتطلب وقفة جادة ودراسة متأنية لما للفكر الاستشراقي من تأثير كبير، وينوه الباحث بالجهود العلمية التي سبقته في التصدّي لظاهرة الاستشراق، ولكنه يود في كتابه هذا أن يركز على بعض النقاط المهمة، راجياً أن يكون كتابه هذا حافزاً على مواصلة الدراسة والبحث في أبعاد هذه القضية، بغية الوصول الى المواقف الصحيحة نحو الفكر الاستشراقي، وفي سبيل ذلك يصرح بأنه سيتوخى الموضوعية والابتعاد عن النزعة الانفعالية.. وسيعدد الجوانب الايجابية والسلبية في هذه القضية - مع التزامه بالموضوعية، مؤمناً بأن الاسلام لا يخشى عليه من التيارات الفكرية المناوئة.

يشتمل كتاب «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري» للدكتور محمود حمدي زقزوق على ثلاثة فصول هي:

1 - مدخل تاريخي حول نشأة الاستشراق وتطوره.

2 - المستشرقون وموقفهم من الاسلام.

3 - موقفنا من الاستشراق.

يبدأ الدكتور محمود حمدي زقزوق كتبه بتقديم مدخل تاريخي يتحدث فيه عن نشأة الاستشراق وتطوره، الا أنه لا يقدم عرضاً مفصلاً لمراحل الفكر الاستشراقي، بل يقدم نظرة عامة توضح المعالم الرئيسية لتطور هذا الفكر، مبيناً أهم العوامل المحددة لبداية الاستشراق، والمؤثرات التي كانت وراء تطور هذا الفكر، وما صحب ذلك من تغير في النظرة الغربية عن الاسلام والحضارة الاسلامية.

يحدد الاستشراق بأنه «علم الشرق أو علم العالم الشرقي» ومن هنا تطلق كلمة «مستشرق» على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله.. في لغاته وآدابه، وحضارته وأديانه»، ويهتم بصورة خاصة بمفهوم الاستشراق الذي يتمثل في الدراسات الغربية ذات الصلة بالشرق الاسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده.

ولعله من الصعب أن نحدد تاريخاً معيناً لنشأة الاستشراق، الا أن بعض الباحثين يؤرخون لبدايته بصدور قرار مجمع (فيينا) الكنسي من عام 1312 م بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية (انظر ادوارد سعيد: الاستشراق ص 80) ولكن هناك عدداً من الباحثين لا يعتمدون هذا التاريخ، وتتجه المحاولات لتحديد فترة زمنية محددة وليس الى تحديد سنة معينة. ان الانتشار السريع للاسلام، الذي وصفه البعض بأنه «اعصار عقائدي» قد لفت اهتمام رجال اللاهوت النصراني، ومن هنا اتجهوا الى دراسته. وكان في مقدمة هؤلاء يوحنا الدمشقي (676 ـ 749 م) الذي قدم عدداً من المصنفات كان من بينها:

1 ـ كتاب «محاورة مع مسلم».

2 ـ وكتاب «ارشادات النصارى في جدل المسلمين».

ولكن هذه المحاولات لا تعتبر بداية للاستشراق، اذ أن يوحنا الدمشقي كان رجلاً شرقياً عاش في ظل الخلافة الأموية، ولا يدخل ضمن فئة العلماء الغربيين الذين اهتموا بدراسة الشرق.

ويرى بعض الباحثين أن البدايات الأولى للاستشراق انطلقت منذ مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، على حين يرى البعض الآخر أن بداياته تعود الى القرن الثامن عشر، اذ تمت فيه لأول مرة ترجمة معاني القرآن الكريم الى اللغة اللاتينية، وصدر فيه أول قاموس لاتيني عربي.

وهناك فريق ثالث يرى أن الاستشراق قد بدأ من القرن العاشر الميلادي، بدءاً من الراهب الفرنسي، جربر دي أورليان (940 ـ 1003 م) الذي ذهب الى الأندلس وتتلمذ على علمائها في أشبيلية وقرطبة، وقد تقلد فيها بعد منصب البابوية في روما باسم سلفستر الثاني (999 ـ 1003 م).

وبالرغم من أن جذور الاستشراق تمتد إلى ما يقرب من ألف عام، فان مفهوم «مستشرق» لم يظهر إلا عند نهاية القرن الثامن عشر، اذ ظهر في انجلترا عام 1779 م ثم في فرنسا عام 1799 م، وأدرج مفهوم الاستشراق في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام 1838 م. يركز الباحث اهتمامه ببداية الدراسات العربية والاسلامية في أوروبا، ويؤكد أن الدافع للاستشراق يرجع إلى الصراع بين العالمين الاسلامي والنصراني في الاندلس وصقلية، وقد وجهت الحروب الصليبية الأوروبيين الى الاهتمام بالاسلام والمسلمين، ولهذا يمكن أن نقول «إن تاريخ الاستشراق في مراحله الأولى هو تاريخ للصراع بين العالم النصراني الغربي في القرون الوسطى، والشرق الاسلامي على الصعيدين الديني والأيديولوجي» (الاستشراق والخلفية الفكرية ص 21)، وقد نشط اللاهوتيون النصارى في حملاتهم ضد الاسلام ونشروا الكثير من الافتراءات والأكاذيب، وجاءت كتاباتهم عن الاسلام مغرقة في الخيال الذي اخترعوه، اذ وصفوا المسلمين بأنهم عباد أصنام، وقد وصف ساذرن هذه الفترة في كتابه (نظرة الغرب الى الاسلام في القرون الوسطى) بأنها عصر الجهالة، إذ كانت الكتابات فيه بعيدة عن الموضوعية. وشهد القرن الثامن بعض المحاولات التي تهدف الى التعرف على الاسلام بشيء من الموضوعية، ولكن ظل الهدف هو محاربة الاسلام. . . وقد أمر بطرس الموقر (ت 1156 م) رئيس رهبان كلوني بتكوين مجموعة من المترجمين في اسبانيا للعمل «من أجل الحصول على معرفة علمية موضوعية عن الدين الاسلامي» (ص 24).

واتجهت الدراسات العربية والاسلامية في أوروبا في اتجاهين:

1 ـ الاتجاه الأول كان اتجاهاً لاهوتياً متطرفاً تسوده نظرة خرافية أسطورية.

2 ـ الاتجاه الثاني يعتبر أقرب إلى الموضوعية.

وهناك بعض الشخصيات الأوروبية التي كانت تظهر بين الحين والآخر تتخذ مواقف ايجابية تجاه الاسلام والمسلمين، أو مواقف أقرب الى الاعتدال، ومنهم فريدريك الثاني حاكم صقلية الذي أصبح امبراطوراً لألمانيا عام 1215 م. وقد كان الكثير من المستشرقين يهدفون الى محاولة تنصير المسلمين، ولذا اهتموا بتعلم لغات المسلمين، ولقد كان من الصعب فصل الاستشراق عن التنصير أو الدافع الديني، بل ان هذا الدافع كان السبب الأول لحركة الاستشراق.

وبدأ المستشرقون في القرن السابع عشر يعملون على جمع المخطوطات الاسلامية، كما تم انشاء كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات، وقد نص قرار انشاء كراسي اللغة العربية في جامعة كمبردج عام 1636، على خدمة هدفين أحدهما تجاري والآخر تنصيري (الاستشراق والخلفية ص 230) ولكن ذلك لا يمنع من ظهور بعض الدراسات الموضوعية مثل كتاب (التاريخ النقدي لعقائد وعادات أمم الشرق) لريتشارد ردسيون (1684 م) اذ تناول هذه العقائد والعادات بشيء من الوضوح والاتزان. وكان الفيلسوف (بير بايل) من المعجبين بتسامح الاسلام والمسلمين، ولكن أولى المحاولات الجادة تمت على يد (هادريان ويلاند) (ت 1718 م) استاذ اللغة الشرقية في جامعة أوترشت بهولندا إذ أصدر كتاباً باللغة اللاتينية عن الاسلام عام 1705 م بعنوان (الديانة المحمدية) من جزئين: عرض في الأول العقيدة الاسلامية، وقام بتصحيح التصورات الغربية حول تعاليم الاسلام، ولكن الكنيسة الكاثوليكية اعتبرت هذا الكتاب ضمن الكتب المحرم تداولها.

وقد شهد القرن الثامن عشر نموذجاً رائعاً في عالم الاستشراق قدّمه «يوهان ج. رايسكه (1716 م ـ 1774 م) اذ أوجد مكاناً بارزاً للدراسات العربية في المانيا، ولكن رجال اللاهوت حاربوه واتهموه بالزندقة، وقد مدح الاسلام في كتاب له ألفه باللاتينية، رفض فيه وصف محمد ﷺ بالكذب أو التضليل، كما رفض وصف الاسلام بأنه خرافات مضحكة، وقد كانت أفكاره تتسم بقدر كبير من

الصراحة والموضوعية، وهو ما عرضه لكثير من ألوان المضايقة حتى مات وهو بائس في الثامنة والخمسين من عمره، وقد وصفه أحد الباحثين بأنه «شهيد الأدب العربي» وصارت حياته تاريخاً لتلك الآلام التي سجلها في مذكراته» (ص 35) ولم يقدر له عصره عبقريته وتفوقه العلمي. ان هذه المحاولات لم تستطع أن تكون لها تياراً في الفكر الأوروبي، ولكنها ظلت ومضات مشرقة في تاريخ هذا الفكر الذي ظل متعصباً وبعيداً عن الحقيقة، ولكن من الملاحظ أن الفكر الاستشراقي بدأ يتخلص تدريجياً من قيود اللاهوت، فخفت صوت الاتهامات ضد الاسلام. . واستمر الأوروبيون في القرن التاسع عشر ينظرون إلى الشرق الاسلامي «كعدو محكوم عليه بالهزيمة» وأصبحت النظرة الأوروبية نظرة متغطرسة متعالية تقسم الشعوب إلى أجناس راقية، وأخرى متخلفة. وانبرى (رينان) ومن تبعه من المستشرقين يؤكدون هذه النظرة العنصرية.

وفي شهر مارس 1795 م أنشأت حكومة الثورة الفرنسية في باريس (مدرسة اللغات الشرقية المهنية) التي كانت تركز على الفائدة العملية، وامكانية مساهمة اللغات الشرقية في تقدم الحركة الأدبية والعلمية. . وأخذت حركة الاستشراق في فرنسا تتجه نحو (الطابع العلمي). وقد كان لسلفستر دي ساسي (ت 1838 م) الفضل في جعل باريس مركزاً للدراسات العربية، وقد كانت جهوده تتجه وتهتم بالدراسات العربية في النحو والأدب، وأصبحت (مدرسة اللغات الشرقية) على يديه نموذجاً للمؤسسة الاستشراقية.

بدأ الاستشراق ينفصل عن اللاهوت، وبدأت نزعة علمية لدراسة الأدب والعقائد، ولكنها لم تتخلص من أغلال التعصب الديني خاصة في مجال الدراسات الاسلامية. . هذه الدراسات التي أصبحت «تخصصاً قائماً بذاته» في نهاية القرن التاسع عشر.

ومنذ ذلك التاريخ بدأ المستشرقون ينشئون جمعيات لمتابعة الدراسات الاستشراقية، فتأسست أولاً الجمعية الآسيوية في باريس عام 1822 م، ثم الجمعية الآسيوية في بريطانيا عام 1823 م، والجمعية الشرقية الأمريكية عام 1842 م، والجمعية الشرقية الألمانية عام 1845 م، وقد نشطت هذه الجمعيات في اصدار الدوريات والكتب المختلفة. وكانت مجلة (ينابيع الشرق) أول مجلة استشراقية متخصصة أصدرها (هامر برجشتال) في فيينا في عام 1809 م، وفي عام 1895 م صدرت مجلة «الاسلام» في باريس، وخلفتها في عام 1906 م مجلة (العالم الاسلامي) التي أصدرتها البعثة العلمية الفرنسية في المغرب.

لقد شهد القرن التاسع عشر بداية انعقاد المؤتمرات الدولية للمستشرقين، اذ عقد أول مؤتمر من هذا النوع في باريس في عام 1873، واستمرت في الانعقاد بصورة منتظمة، بالاضافة الى عدد من المؤتمرات والنداءات واللقاءات الاقليمية، كما شهد هذا القرن امتداد الموجة الاستعمارية اذ استولى المستعمرون الغربيون على أجزاء كبيرة من العالم الاسلامي، وعمل الاستعمار على تجنيد عدد من المستشرقين لخدمة أهدافه، فكان دي ساسي يشغل منصب المستشرق المقيم في وزارة الخارجية الفرنسية، كما عين «ماسينيون» مستشاراً للادارة الاستعمارية الفرنسية في الشئون الاسلامية. وكان اللورد كيزن في أوائل هذا القرن من المتحمسين لإنشاء مدرسة الدراسات الشرقية، إذ أنها تعد في نظره «جزءاً ضرورياً من تأثيث الامبراطورية». . ومن هنا اتجه المستشرقون الى دراسة البلاد الاسلامية التي استعمروها في كل شئونها من عقيدة وعادات وأخلاق وثرواتٍ ليتعرفوا على مواطن القوة فيضعفوها، وإلى مواطن الضعف فيغتنموها» (ادوارد سعيد: الاستشراق ص 68 - 70).

لم يكتف المستشرقون بتقديم التبرير العقلي للاستعمار، بل كان الفكر الاستشراقي دليلاً للاستعمار في سبيل فرض السيطرة على الشرق والهيمنة على شعوبه، وبذلك اتجه الاستشراق الى اضعاف روح المقاومة وتشكيل المسلمين في معتقداتهم وتراثهم.

وقد كان لليهود دور كبير في حركة الاستشراق، واستطاعوا أن يدخلوا الميدان بوصفهم أوروبيين لا يهوداً، واستطاع «جولد تسيهر» وهو يهودي مجري - أن يصبح أستاذاً لباحثين في الدراسات الاسلامية في أوروبا، وقد وجد هو وغيره من اليهود في الاستشراق مجالاً لنفث سمومهم ومفترياتهم ضد الاسلام والمسلمين.

ويرى الباحث أن الاستشراق ليس مهدداً بالانتهاء في وقت قريب، إذ أن حركة الفكر الاستشراقي لم تنحسر بالرغم من انحسار المد الاستعماري، بل إن مجالات التخصص قد تعددت لدى المستشرقين، وما زالت الحكومات الأوروبية تهتم بدعم المؤسسات الاستشراقية، وتقدم لها العون المالي اللازم، «وذلك لدعم النتائج التي تؤدي إلى احتواء العالم العربي الاسلامي والتشبث به، باعتباره منطقة اضطراب، حيث تكمن اهتمامات الغرب ومصالحه» (أولبريش هارمان: مجلة الباحث، العدد 25، يناير - فبراير 1983 م ص 144) ومن هنا فان حاجة أوروبا إلى الاستشراق ما زالت قائمة، بل لعلها أصبحت أكثر إلحاحاً.

في الفصل الثاني يعرض المؤلف لمواقف بعض المستشرقين من الاسلام من الذين بذلوا جهوداً كبيرة في مجالات التدريس الجامعي، وجمع المخطوطات وتحقيقها، والتأليف والترجمة، إذ توجد معاهد للاستشراق تابعة لكثير من الجامعات في أوروبا وأمريكا، مزودة بمكتبات غنية بالمصادر والمراجع، كما تضم هذه المعاهد عدداً من المستشرقين الذين يتصفون بالصبر العجيب النادر على البحث والدرس، وقد أبدى الشيخ مصطفى عبد الرازق، الاعجاب بصبرهم ونشاطهم وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم» وقد كان لهم دور في نشر وتحقيق الكثير من المخطوطات العربية. . قام ألوارد Alwardt بوضع فهرس للمخطوطات العربية في مكتبة برلين، وقام

غيره بفهرسة المخطوطات العربية في أوروبا التي تقدر بعشرات الآلاف.

قال أمين الخولي رحمه الله تعليقاً على البحث الذي قدمته باحثة من المستشرقين عن نوادر مخطوطات القرآن الكريم في القرن السادس عشر في مؤتمر المستشرقين الدولي الخامس والعشرين: ولقد قدمت السيدة كراتشكوفسكي بحثاً عن نوادر مخطوطات القرآن الكريم في القرن السادس عشر الميلادي. واني أشك في أن الكثيرين من أئمة المسلمين يعرفون شيئاً عن هذه المخطوطات، وأظن أن هذه مسألة لا يمكن التساهل في تقديرها».

(العقيقي: المستشرقون حـ 3 / 352 و 598).

ومن كتب التراث التي قام المستشرقون بتحقيقها ونشرها نذكر على سبيل المثال:

سيرة ابن هشام، الاتقان للسيوطي، المغازي للواقدي، الكشاف للزمخشري، تاريخ الطبري، كتاب سيبويه. الاشتقاق لابن دريد، الانساب للسمعاني.

كما قام المستشرقون بترجمة الكثير من الكتب العربية إلى اللغات الأوروبية نذكر منها: تاريخ الطبري - مروج الذهب للمسعودي - تاريخ الخلفاء للسيوطي - المنقذ من الضلال للغزالي، وقدموا في مجال التأليف آلاف الكتب إذ بلغ ما ألفوه عن الشرق في قرن ونصف (منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين) ستين ألف كتاب (ادوارد سعيد: الاستشراق ص 216).

كما أعد المستشرقون دائرة المعارف الاسلامية، وهي وان كانت تتضمن أخطاء عديدة تجعلها عرضة لمآخذ كثيرة - فإنها تعد جهداً علمياً كبيراً، وقد صدرت طبعتها الأولى بالانجليزية والفرنسية والألمانية في الفترة من عام 1913 م إلى عام 1938 م، ثم ظهرت الطبعة الجديدة باللغتين الانجليزية والفرنسية ابتداء من عام 1954 م إلى عام 1977 م. وتولت ترجمتها إلى العربية لجنة خاصة من خريجي الجامعات المصرية منذ عام 1933 م، ولكن الترجمة لم تكتمل حتى الآن، إلا أنها تضمنت تعليقات مهمة كتبها علماء معروفون لتصحيح الأخطاء التي وردت في الأصول الأوروبية.

وقد برع المستشرقون في اعداد المعاجم والقواميس اللغوية، ونذكر من ذلك المعجم العربي اللاتيني الذي أعده جورج فيلهلم فرايتاج دت 1861 م، كما نشير إلى معجم اللغة العربية القديمة المرتب وفقاً للمصادر، الذي أمضى أوجست فيشر دت 1949 م، في جمعه واعداده أربعين عاماً، بالتعاون مع عدد من المستشرقين، كما لا يفوتنا الاشارة إلى المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف.

وهذه الأعمال كلها جديرة بالتقدير لما تمتع به أصحابها من صبر عجيب، إلا أنها لا تخلو من أهداف معينة، إذ كان المستشرقون يهدفون إلى محاربة الاسلام ويبحثون عن نقاط الضعف لدى المسلمين، كما يهدفون إلى التبشير ومحاولة تنصير المسلمين. ولعل الهدف الديني لم يكن ظاهراً بصورة واضحة في كتابات بعض المستشرقين ودراساتهم، إلا أنه ما زال يعمل من وراء ستار إذ أن من الصعب على معظم المستشرقين أن يدرسوا الاسلام بصورة موضوعية، لأن شبح الحروب الصليبية - كما قال محمد أسد - ما زال يعيش في أعماق الضمير الأوروبي.

ويمكننا أن نقسم المستشرقين إلى الفئات التالية:

١ - فريق من طلاب الأساطير والغرائب.

٢ - فريق جندوا دراساتهم وبحوثهم في خدمة المصالح الاستعمارية.

٣ - فريق من المتعصبين الذين أعماهم التعصب عن رؤية الحقيقة.

٤ - فريق تصدى لدراسة الاسلام، إلا أنه انحرف عن سمات البحث العلمي.

٥ - فريق التزم الموضوعية في دراسته للاسلام، الأمر الذي حدا ببعضهم إلى اعتناقه.

٦ - فريق تخصص في دراسة اللغة العربية والأدب العربي، وإعداد المعاجم.

ويعلن المستشرقون بأن دراساتهم وبحوثهم في العلوم العربية والاسلامية لا تقوم إلا على تقدير للإسلام والمسلمين، ولا تهدف إلا للوصول إلى الحقيقة العلمية، إلا أن الفحص الدقيق لهذه الأعمال يظهر أن الدافع من ورائها كان متصلاً بالرغبة في التجريح وإضعاف العقيدة لدى المسلمين، ودفعهم إلى اتباع سبيل الغرب، إذ إن الاسلام - في زعمهم - دين جامد لم يعد قادراً على مسايرة روح العصر. وفي ذلك يقول ك. كراج K. Cragg رئيس تحرير مجلة العالم الاسلامي: «إن على الاسلام إما أن يعتمد تغييراً جذرياً فيه أو أن يتخلى عن مسايرة الحياة» (انظر محمد البهي: الفكر الاسلامي الحديث ص 612).

وهم يشعرون بالخطر الداهم أمام الوحدة الاسلامية التي يعتبرونها الخطر الأعظم الذي ينبغي للدول الأوروبية أن تحذره وتحاربه.

يلاحظ المؤلف أن الفكر الاستشراقي لم يطور كثيراً من أساليبه

ومناهجه، باستثناء القليل، وما زالت وسائل الاعلام تؤكد هذا الاتجاه العدائي للاسلام، بالرغم من أن مجلس الفاتيكان قد نوه في اكتوبر 1965 م ببعض الحقائق التي جاء بها الاسلام.

كما يلاحظ بأن المستشرقين يخلطون كثيراً بين الاسلام بوصفه ديناً وبين واقع المسلمين المتردي البعيد عن تعاليم الاسلام وقيمه، ويهتمون كثيراً ببعض الفرق المنشقة عن الاسلام كالبهائية والقاديانية، والعمل على تعميق هوة الخلاف بين المسلمين.

ونجد معظم كتابات المستشرقين تخلو من الروح الموضوعية في دراساتهم عن الاسلام، ولعل ذلك يرجع إلى خوف أوروبا من الاسلام، إذ يرون أن الخطر الاسلامي هو الذي يهددهم في عقر دارهم. ويبدو واضحاً أن الفكر الاستشراقي يرتكز على مسلمة أساسية تحمل شعار «الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا» كما قال الشاعر الاستعماري كبلنج Kipling.

وفي الفصل الثالث يحدد المؤلف موقفنا من الاستشراق الذي يجب أن لا يكون موقف التفرج، لأن القضية تمس عقيدتنا ولغتنا وتراثنا وتاريخنا، بل لا بد من مواجهة التحديات لإثبات الذات، وقد آن الأوان للعمل بعد أن ضيعنا الكثير من الجهد والوقت في توافه الأمور.

لقد كانت التيارات الفكرية الوافدة - في عصور الاسلام المشرقة - تمثل تحدياً للمسلمين واجهوه بقوة حتى تفوقوا عليه، ليشتد الصراع الآن بين الاسلام والتيارات المناوئة في حلبة الفكر، وعلى المسلمين أن يتزودوا بالأسلحة اللازمة لمواجهة هذا الخطر. وتبدأ المواجهة - في رأي المؤلف - باستيعاب الفكر الاستشراقي ثم نقده نقداً صحيحاً وإظهار ما يتضمنه من زيف وتحريف، كما يجب أن نواجه أنفسنا بنقد ذاتي حقيقي لنعرف عيوبنا وأوجه القصور عندنا، وأن نتسلح بالوعي الحقيقي والادراك لأبعاد مشكلات العصر، وأن لا نكتفي بالحديث عن أمجاد الماضي ومفاخر الأجداد، لأن أحوالنا لن تتغير إلا وفقاً لمبدأ القرآن الخالد: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (سورة الرعد آية 11).

ويقترح المؤلف بعض الأساليب التي يراها كفيلة بتحقيق رسالتنا نذكر منها:

١ - إعداد موسوعة للرد على المستشرقين، وقد سبق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أن دعت إلى ندوة لمناقشة موضوع إعداد هذه الموسوعة، ولكن المشروع توقف ولم يخرج إلى حيز التنفيذ، ويقترح المؤلف العمل على تنفيذ هذا المشروع الثقافي الكبير على أن تتضمن الموسوعة الرد على الشبهات التي يثيرها المستشرقون، وذلك بحصر الكتب والدوريات التي أعدها المستشرقون، وتكليف مجموعة من المختصين باعداد الردود العلمية، على أن تتم الاستعانة بالخبراء في اللغات المختلفة والمفكرين الذين اعتنقوا الاسلام في أوروبا. ولا شك أن هذا المشروع يتطلب هيئة علمية متخصصة.

٢ - العمل على تشكيل مؤسسة إسلامية علمية عالمية تستقطب الكفاءات العلمية الاسلامية، وتكون لها دورياتها وصلابتها ذات المستوى العلمي الرفيع بلغات مختلفة، تتحرك نحو تعميق أصالتنا الفكرية وتميزنا، إذ أن المجتمع الذي لا يصنع أفكاره لا يمكنه أن يصنع غيرها من المنتجات اللازمة لاستهلاكه أو تصنيعه. وإنه لمن المؤسف أن لا توجد في العالم الاسلامي بما لديه من إمكانيات هائلة - مؤسسة علمية دولية واحدة. ولذلك يجد الباحثون في الوطن العربي والعالم الاسلامي أنفسهم مضطرين إلى مراجعة الدوريات الرئيسية المتخصصة في الدراسات العربية والاسلامية التي يصدرها المستشرقون، كما لا توجد مؤسسة علمية واحدة لدينا ترقى إلى مستوى الجامعات ومراكز البحوث في أوروبا وأمريكا، ومن هنا يتجه الطلاب الشرقيون إلى الولايات المتحدة الأمريكية والأقطار الأوروبية للتتلمذ على المستشرقين والتأثر بمناهجهم وأفكارهم. إن الحاجة ملحة إلى ضرورة إنشاء مؤسسة إسلامية عالمية للبحوث العلمية الاسلامية تضم صفوة من الباحثين تعمل ضمن مجموعات عمل متخصصة في مجالات البحث المختلفة، وتخطط لمسارات البحث في الجامعات الاسلامية ومراكز البحوث التابعة لها «فتصل الماضي بالحاضر، وتجدد شباب تراثنا وتجنده لخدمة الحياة الاسلامية المتجددة» (ص 139 / 140).

٣ - إعداد دائرة معارف إسلامية جديدة، إذ من العيب أن نظل عالة على دائرة المعارف الاسلامية التي أعدها المستشرقون، متضمنة لكثير من التحريفات والطعون، ونعمل على أن يقوم باعداد دائرة المعارف هذه مجموعة من الباحثين الاسلاميين في مختلف المجالات بتعاون وتنسيق يوفران لنا الجهد والوقت والمال ويقدمان عملاً علمياً نافعاً للأجيال المسلمة.

٤ - تكوين جهاز عالمي للدعوة الاسلامية: يدعو إلى الاسلام، ويهتم بالمسلمين الجدد، ويوجه المسلمين (بالوراثة)، ويقوم بالدعوة والتوعية بأسلوب علمي يتناسب مع روح العصر، ويقدم الحلول الاسلامية للمشكلات المعاصرة التي تواجه المسلمين في الوقت الحاضر، وذلك يتطلب حضوراً مستمراً من أجهزة الاعلام الغربية، ونشر الكتب والرسائل، وتنظيم المعارض وإقامة المهرجانات الثقافية لنشر الاسلام في الداخل والخارج.

٥ - إعداد ترجمة إسلامية لمعاني القرآن الكريم: إذ أن الكثير من الترجمات الموجودة حالياً ليست في المستوى المطلوب.

٦ - تنقية التراث الاسلامي: إذ أن الاهتمام بالتراث لا يعني التغني بالأمجاد، ولكنه يعني الاهتمام بالجذور والعودة إلى الأصول،

ولا شك أن تراثنا ـ كأي جهد بشري ـ يشتمل على جوانب سلبية تحتاج إلى تنقية وغربلة، ويمكن أن يعهد بها إلى المؤسسة العلمية الاسلامية المقترحة.

٧ ـ الحضور الاسلامي في الغرب.

٨ ـ الحوار مع المستشرقين المعتدلين.

٩ ـ تكوين دار نشر إسلامية عالمية.

وبعد، فان كتاب «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري» ـ بالرغم من صغره ـ يعتبر دراسة جيدة ألقت الأضواء حول نشأة الاستشراق وأهدافه، وبينت الكثير من مناهج المستشرقين وفضحت شبهاتهم ومطاعنهم، وأوضحت أبعاد الموقف الحقيقي التي يجب أن يقفه العرب والمسلمون ازاء هذه التحديات التي تواجههم، وقد استطاع أن يوضح أبعاد الفكر الاستشراقي وأهداف حركة الاستشراق ومراميها... وبذلك حدد معالم الطريق نحو دراسة واعية وفهم عميق نأمل أن يكون بداية جادة من المسئولين عن أجهزة الثقافة والدعوة والجامعات ومراكز البحوث في الوطن العربي والعالم الاسلامي، حتى تكون نهضتنا الفكرية المرجوة مرتكزة على أسس صحيحة ومنطلقات صائبة تحقق لنا الخير والتقدم، وتعيد لأمتنا مجدها وأصالتها الفكرية.